أم عمّـــار

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

أم عمار

قال لي ولدي: ومن التي بشرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها أم عمار واسمها: سُمَيَّةُ بنتُ خَيَّاط. كانت أَمَةً من إماء أبي حذيفة بن المغيرة أحد سادة مكة المرموقين.

وذات يوم غادر اليمن إلى مكة ثلاثة إخوة هم: الحارث ومالك وياسر أبناء عامر، للبحث عن أخ لهم، ثم عاد الحارث ومالك إلى اليمن، وبقي ياسر في مكة بعد أن طاب له المقام فيها، وحالف أبا حُذيفة بن المغيرة.

كان أبو حُذيفة سعيداً بهذا التحالف، ولذا عرض على ياسر أن يزوِّجه إحدى إمائه وهي سُمية بنت خياط، ولم يتردد ياسر بقبول هذا الزواج المبارك الذي كان من ثمرته عمار بن ياسر.

ولما دعا رسول الله ﷺ آل مكة إلى دين الإسلام، وجدت دعوته لدى أسرة ياسر بن عامر أذناً صاغية، واستجابة عاجلة، فكان ياسر وزوجه سمية وابنهما عمار من السابقين الأولين للإسلام، الذين استجابوا لله ورسوله حين دعوا إلى ما يحييهم، وعزموا ألاّ يبالوا بما يلاقونه بعد ذلك من المشقة والعنت والعذاب، في سبيل الله، ما دام ذلك سيوصلهم إلى مرضاته، ويبلغهم إلى نعيم جناته.

وأعلنت قريش حربها وطغيانها على رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام الذين اتبعوا ماجاء به من الهدى والنور بعد أن تركوا دينها وراء ظهورهم، وسفهوا عقولها، وشتموا آلهتها التي كانوا ينحتونها من الحجارة، أو ينجرونها من الخشب بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله، كما أن بعضهم كانوا يصنعونها من التمر، ثم يقدمون لها فروض الطاعة والولاء، فإذا جاعوا راحوا يأكلونها أو يطعمونها لأطفالهم وأهليهم في بعض الأحايين.

وكان نصيب آل ياسر جميعاً من نكال قريش وظلمها موفوراً، فقد شنت عليهم حرباً شعواء، وسقتهم ألوان العذاب.

وكان أبو جهل شقي قريش الأول، يتفنن في ابتداع أساليب التعذيب والقهر والتنكيل، يبتغي من وراء فعاله ردهم إلى الكفر بعد الإيمان، والشرك بعد التوحيد، ولكن آماله كانت تتبدد في كل مرة يظن فيها أنه سيغلب إرادتهم وينتصر على عزائمهم القوية، فإذا هو يحصد الخيبة والإخفاق، ولا يجد أمامه إلا جبالاً من الصبر لا سبيل لإزاحتها أو تفتيتها، وإصراراً على الإيمان لا يمكن قهره أو القضاء عليه.

ويعطي أبو جهل الأوامر إلى زبانيته بإخراج ياسر وسمية وعمار إلى الفلاة لتحرقهم أشعة الشمس بلهيبها، ويأمر بإضجاعهم على الرمال اللاهبة، ويوصي بضربهم بالسياط، وكيِّهم بأسياخ الحديد المحمَّاة، وينظر إليهم، فيجن جنونه، وهو يرى الابتسام على شفاههم.

لقد خفي على أبي جهل أن حلاوة الإيمان التي ذاقها آل ياسر لا يمكن أن تنال منها الآلام مهما تكن شدتها أو تمعن في قسوتها.

ويغضب الشقي ويثور لإخفاقه في حملهم على الكفر، ولا يجد شيئاً يُسكنْ غضبه إلا أمر زبانيته برفع وتيرة العذاب، وزيادة حدته عساه أن يصل بذلك إلى مرامه الخبيث.

وكان رسول الله ﷺ يمر بهؤلاء المستضعَفين، ويرى ما يفعله بهم الطغاة البغاة من أشنع ألوان التعذيب، ولكنه لم يكن يملك لهم يومئذٍ إلا أن يدعو الله لهم ليخفف عنهم آلامهم، وأن يدعوهم إلى مزيد من الصبر والاحتمال.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ومر رسول الله ﷺ بآل ياسر وهم يُعذَبون، فقال له عمار:

يا رسول الله ﷺ، لقد بلغ منا العذاب مبلغاً عظيماً، ويرد رسول الله ﷺ عليه قائلاً: «**صبراً أبا اليقظان، صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**».

ويروي سالم بن أبي الجعد قال:

دعا عثمان ناساً من أصحاب النبي ﷺ، فيهم عمار بن ياسر فقال عثمان: أما إني سأحدثكم عن عمار، أقبلت أنا والنبي ﷺ في البطحاء حتى أتينا على عمار وأمه وأبيه وهم يعذَّبون فقال ياسر للنبي ﷺ: الدهر هكذا؟ فقال له النبي ﷺ: «**اصبر**»، ثم قال: «**اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت**».

فهنيئاً لآل ياسر الجنة التي وُعِدوا بها، والمغفرة التي دعا لهم رسول الله ﷺ بها فأُعْطُوها.

وصبر آل ياسر كما أمرهم ﷺ، وقاوموا جلّاديهم الذين كلما أمعنوا في تعذيبهم والتنكيل بهم وجدوا من الصبر مزيداً لديهم، ومن قوة الاحتمال ما لا يطيقه سواهم.

بَيْدَ أنَّ للصبر حدوداً، فقد أنهك التعذيب ياسراً ولم تعد قواه تحتمل المزيد من قسوة التعذيب، فتوقفت في صدره الأنفاس، وانطلقت روحه إلى بارئها لتشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وتطلب لديه الإنصاف.

ذهب ياسر إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ليجد في ظلالها الراحة بعد مسيرة طويلة من العذاب والآلام، وترك عماراً وأمه سمية بين يدي من لا يخاف الله ولا يرحمهما.

ويبدو أن أبا جهل لم يتلذذ بإصدار الأوامر إلى زبانيته لتعذيب هؤلاء المستضعفين، ولم يبلغ النشوة التي كان يطمح إليها، فقرر أن يكف زبانيته عما يفعلونه بهم، لا من باب رحمتهم والشفقة عليهم، ولكن رجاء أن يشفي غليله منهم إذا قام بتعذيبهم بنفسه.

ولم يكن هذا الباغي الأثيم ليدرك أن موت ياسر قد أعطى زوجه سمية شحنة إضافية من الصبر والجَلَد والاحتمال.

سار إليها أبو جهل مع بعض أعوانه الضالّين، وراح يهددها بسوء المصير، وأنه سيُلحقها بزوجها إذا لم تترك دينِ محمد ﷺ، ثم راح يشتمُها ويشتم نبيها الذي آمنت به وصدقته.

وأتقدت جذوة الإيمان في صدر أم عمار وثارت كرامتها لشتم نبيّهَا أمامها لا من أجل ذاتها، فردت على الفاسق الفاجر رداً عنيفاً مرَّغ كبرياءه وسمعته بالتراب، وجعله في الأذلين.

وطاش صواب أبي جهل حين سمع مقالتها، وأخذ يرغي ويزبد، ويكيل لها الشتائم، ثم خطف الحربة من أحد رجاله وغرسها في جسد سمية، وسمعها الشقيّ اللعين وهو تقول: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتوقفت الأنفاس في صدرها ولكن ابتسامة الظفر كانت فوق شفتيها تسخر من قاتلها الذي أفسد عليها دنياها وأفسدت عليه آخرته، وكان اسم سُمية أول سطر يكتب في سجل الخالدات، وعفا الله عمن قال:

أسميةٌ يا أُسوةَ الشهداء
حققتِ في الإسلام خير رجاءِ
وأصبتِ في ذاتِ الإله شهادةً
قد بلَّغتك لجنةٍ غرَّاءِ
يا أمَّ عمار وزوجةَ ياسر
كنتم لعمري صفوة الخلصاء
الباذلين دماءهم وحياتهم
طوبى لكم، ولتَنْعموا بعطاء
لا يبتغي أحدٌ عطاءً بعده
من فضلِ ذي الملكوت والآلاءِ
آمنتمُ بالله واسْتَبْدَلتُمُ
دارَ البقاء لكم بدارِ فَنَاءِ

فَلْتَهنأوا يا أم عمار بما
سترونه مع خيرة النزلاءِ

عند المهيمن ذي الجلال فإنه
يجزي أحبته أجَلَّ جزاءِ

يا أمة الإسلام إن سمية
سبقتكمُ للمجد والعلياءِ

فإذا رضيتم ما ارتضته فَسَارعُوا
لِلَحاق ركب أميرةِ الشهداءِ

أجل! لقد كانت أم عمار ـ حقاً ـ أميرة الشهداء، والمنارة الشامخة التي أنارت لهم الطريق، والأسوة التي لقيت وجه ربها، وهو عنها راض، وتحدث عنها ابن الجوزي فقال: هي أول شهيدة في الإسلام [صفة الصفوة ـ ٢/ ٦] رضي الله عنها وأرضاها، وتقبلها بقبولٍ حسنٍ، وأحسن نزلها ومثواها.

قال: وماذا كان من شأن عمار ولدها يا أبي؟.

قلت: لقد فرغ المشركون من أمه وأبيه، فمنحوا الوقت الذي كانوا يعذبونهما به إلى ولدهما عمار، وصبّوا عليه العذاب صبّاً، وعرَّضوا جسده للنار، فاكتوى بجمرها، ونال منه لهيبها، فإذا مرّ به رسول الله ﷺ، مسح بيده الشريفة حروقه وراح يقول: «**يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم**».

ويرتاح عمار لهذه الكلمات الطيبات الصادرات عن أطيب ثغر يخرج القول الطيب، فيطيب من حوله الوجود، وتقر

العيون، وتسكن النفوس.

ويستمر العذاب ويشتد، ويضيق احتمال عمار وتنهار قواه، وينفذ صبره، فيجيب المشركين إلى طلبهم، ويعطيهم ما يريدون منه، وينطق بكلمة الكفر لسانه، وقلبه عما فعله غير مُقِرٍّ وغير مرتاح.

وتُسَرُّ قريش بذلك، فتطلق سراح عمار وتكف عن تعذيبه، فيسرع إلى رسول الله ﷺ، فيلقاه وهو يبكي نادماً على ما بدر منه، وتمتد اليد الحانية، يد رسول الله ﷺ إلى وجهه لتمسح دموعه، ويقول له رسول الله ﷺ: «**أخذك الكفار، فغطوك في الماء، فقلت: كذا... وكذا...؟**».

ويرد عمار والعبرات تكاد تخنقه: نعم يا رسول الله، نعم يا رسول الله، ويقول له رسول الله ﷺ مبتسماً: «**إن عادوا فقل لهم مثل قولك هذا**»، ثم يتلو عليه قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وتهدأ نفس عمار بما سمع من رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى، ويباهي رسول الله ﷺ أصحابه بإيمان عمار ويقول لهم: «**إن عماراً مليء إيماناً إلى مُشَاشِه**» ـ مخ عظامه ـ.

ويأذن رسول الله ﷺ إلى أصحابه بالهجرة إلى المدينة، ويخرجون من مكة سراً في غفلة من رقباء قريش.

ويوم نادى المنادي في طرقات المدينة يبشر بوصول

الحبيب الأعظم إلى ظاهرها، خرج أنصارها ومهاجروها لاستقبال أعظم ضيوفها، واستقبله شيبها وشبابها وأطفالها بالأهزوجة الخالدة:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

وكان عمار بين هذا البحر المتلاطم من البشر، وقد امتلأت نفسه غبطة وسروراً، وبعد أن نزل رسول الله ﷺ ضيفاً على أبي أيوب الأنصاري، وأخذ قسطاً من الراحة، دعا أصحابه إلى بناء مسجده المطهر وبعض الحجرات الملحقة به لتكون مساكن لأمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ.

وبدأ العمل الجاد بمشاركة رسول الله ﷺ لأصحابه، ويرتفع بناء المسجد، ويلمح رسول الله ﷺ الصحابة ينقلون الأحجار حجراً حجراً، وينظر إلى عمار وهو يحمل حجرين حجرين، فيقول لأصحابه: «**ويح ابن سمية، تقتله الفئة الباغية**».

صحيح أن سمية قد رحلت بجسدها، ولكن ذكراها باقية في النفوس، راسخة في القلوب.

وأثناء إقامة المسجد، أخذ علي بن أبي طالب يرتجز:

لا يستوي من يعمر المساجدا
يدأب فيها قائماً وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

ويأخذ عمار بترديد هذا الهزج بصوت مرتفع، في ناحية من المسجد، أثناء عمله، فيظن أحد الصحابة أنه يُعَرِّض به، فيغاضبه، ويسمع رسول الله ﷺ بما جرى، فيقول: «**ما لهم ولعمار؟ يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، إن عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي**».

وهكذا برز لِلصحابة الكرام قدر عمار عند رسول الله ﷺ وبانت منزلة، ثم يقول ﷺ: «**من عادى عماراً عاداه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله**».

ويسمع خالد بن الوليد مقالة رسول الله ﷺ عن عمار ـ وكان قد نشب بينهما خلاف ـ فيسرع إلى عمار يسأله الصفح والعفو عما بدر منه بحقه، وينقلب الخصام إلى وئام، والكدر إلى صفاء، ويَحلُّ الود والإخاء محل العداوة والشحناء، إنها الأخلاق النبوية التي وعاها كل من انتسب إلى مدرسة سيدنا محمد ﷺ، حتى إذا تخرّج منها راح ينشرها بين الناس وكان لها أول المطبقين.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**ما خُيِّر ابن سمية بين أمرين إلا اختار أيسرهما**».

وقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق، وكان رسول الله ﷺ يقول له إذا رآه: «**مرحباً بالطيب المطيب**».

ولما قتل عدو الله أبو جهل في معركة بدر الخالدة قال رسول الله ﷺ لعمار: «**قتل الله قاتل أمك**».

قال: وكيف كان جهاد عمار يا أبي؟

قلت: كان عمار رضي الله عنه لا يفارق رسول الله ﷺ في

غزواته، فقد شهد «بدراً» و«أُحداً» و«الخندق» و«تبوك» معه وأبلى فيها جميعاً أحسن البلاء، واستبسل في التضحية والفداء.

وأوصى به رسول الله ﷺ أصحابه فقال لهم: «**اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار**»، فهل علمت أي تكريم لقيه آل ياسر من رسول الله ﷺ يا بني؟

ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، حزن عليه ابن سمية أعمق الحزن، واستمر بعده في جهاده للباطل ونصرته للحق، وحفظ له أصحاب رسول الله ﷺ قدره ومنزلته.

ولما قامت حروب الردة في خلافة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، كان عمار في طليعة السيوف المؤمنة التي لم تغمد حتى عاد الحق إلى نصابه وقضي على المرتدين.

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أسند إليه ولاية الكوفة وكتب إلى أهلها يقول: إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وابن مسعود معلماً ووزيراً، وإنهما لمن النجباء، من أصحاب محمد ﷺ، ومن أهل بدر.

ولما حضرت الوفاة حذيفة بن اليمان سألوه وهو الخبير بالرجال: بمن تأمرنا إذا اختلف الناس؟ فكانت آخر كلمات حذيفة وهو يودع الحياة: عليكم بابن سمية، فإنه لن يفارق الحق حتى يموت.

ويوم «صفين» وقف ابن سمية مع علي ابن عم رسول الله ﷺ وقاتل دونه حتى قتل، فعلم الناس أن الحق معه، ولحق عمار بوالديه إلى جنة الخلد، بعد أن اشتد له شوق الحور العين.